الإهـــداء

إلى أرض الحضارات التي إنبعثت النهضة الأوربية من فكر روادها.

إلى من أشرقت شمس العلوم والفنون والآداب من أرضها.

إلى من تطورت على يديه المدنيات التى تقدم على أثرها الإنسان سواء فى الشرق أو الغرب.

إلى من تفتحت بين يديه الأذهان واستنارت العقول وتحاور مع الحضارات وأخذ منها وأعطاها دون تعصب أو فرض هيمنة.

إلى أوطان وأبناء العروبة والإسلام الذى يزدان التاريخ بحضاراتهم أهدى هذا الكتاب.

المؤلف

د. عبد المنعم الجميعي

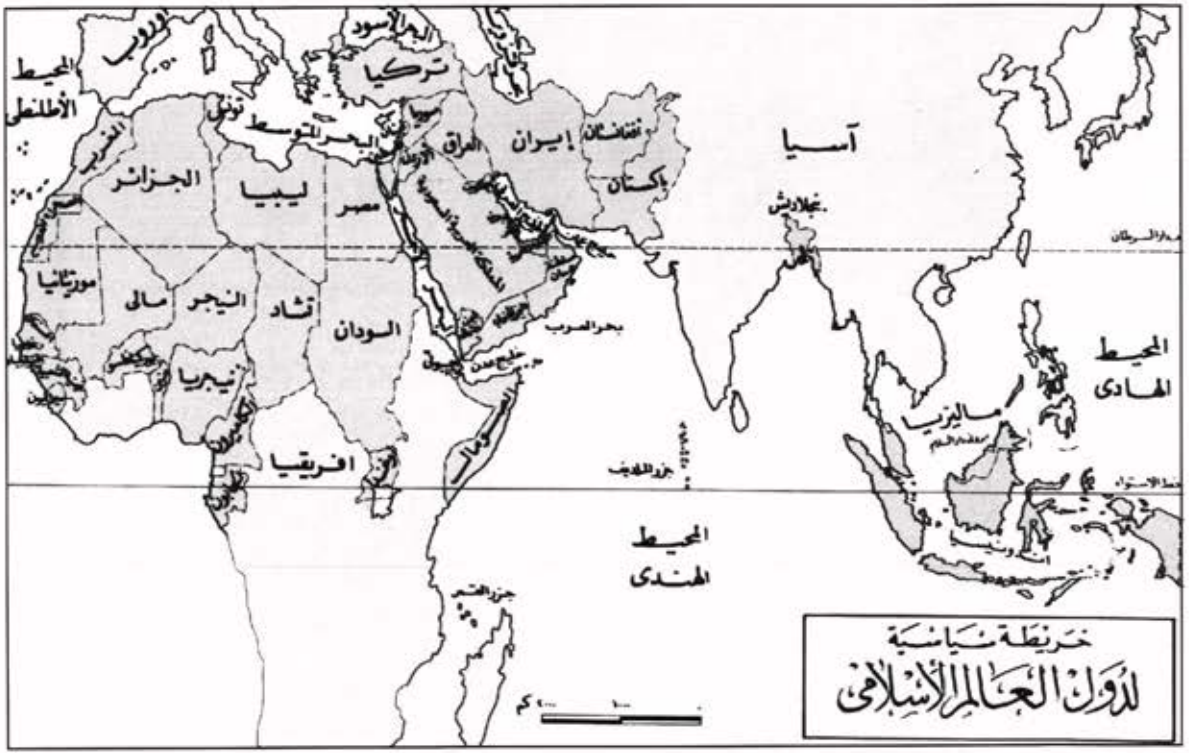
المحيط
الأطلنطي
أوروبا
البحر الأسود
تركيا
تونس
البحر المتوسط
الجزائر
ليبيا
مصر
العراق
إيران
أفغانستان
باكستان
آسيا
بنجلاديش
موريتانيا
مالى
النيجر
تشاد
السودان
نيجيريا
بحر العرب
خليج عدن
ماليزيا
المحيط
الهادى
افريقيا
المحيط
الهندى
خريطة سياسية
لدول العالم الإسلامى

مقدمة

التراث الذى خلّفه الأقدمون هو الذى مهد السبيل لما وصل إليه الإنسان الآن، ولولا ذلك لما تطورت المدنيات، ولما تقدم الإنسان، لذلك يجب أن ينظر إلى الفكر البشرى ككائن ينمو ويتطور، فأجزاء منه تقوم بأدوار معينة فى أوقات خاصة تمهد السبيل لأدوار أخرى معينة، فاليونان والفرس والهنود والصينيون قدموا للعالم القديم ابتكاراتهم وعلومهم ثم جاء العرب ومهدوا الأذهان والعقول للأدوار التى قام بها الأوربيون فيما بعد، وما كان لأحد منهم أن يسبق الآخر بل كان العلماء يأخذون عن غيرهم ممن تقدمهم ويزيدون عليه ويضيفون إليه.

فقد اعتمد العرب فى بداية أمرهم على شعوب البلاد المفتوحة. وكانت هذه الشعوب عريقة فى حضارتها، فهناك الحضارة الساسانية التى سادت العراق وفارس، وكانت تحتفظ بتراث آسيوى خاص ساهمت فى تكوينه الحضارتان الصينية والهندية بنصيب وافر. وهناك الحضارة البيزنطية التى سادت فى الأقطار المطلة على حوض البحر المتوسط، وهى حضارة ذات أصول يونانية شرقية، لأن البيزنطيين والرومان من قبلهم، كانوا تلامذة لليونان، وكانت الإسكندرية وحران والرها ونصيبين وأنطاكية من أهم مراكز الثقافة اليونانية الرومانية.

فالعرب، رغم تراثهم العريق القديم الذى تمثل فى حضارات معين وسبأ وحمير فى بلاد اليمن، وحضارة الحجاز التى اشتهرت بنشاطها التجارى والديني، إلا أنهم وجدوا فى البلاد التى فتحوها حضارات متطورة راقية، لها إدارات حكومية منظمة، ونظم اقتصادية متفوقة فى الزراعة وأعمال الرى والصناعة وفى ميادين العلوم العقلية والتجريبية كالرياضيات والفلك والفيزياء، فاغترفوا منها بما يتفق مع تقاليدهم وعقيدتهم.

وهكذا نرى أن الدولة الإسلامية باعتمادها على هذه الشعوب، عملت على

مزجها وصهرها فى البوتقة الإسلامية . وهذا الاتحاد هو السر فى تلك النهضة العلمية العجيبة التى امتدت من قيام الدولة العباسية إلى نهاية القرن العاشر الميلادى. فإن كان للدولة العربية الإسلامية فى صدر الإسلام، فضل الفتوح والانتشار والاتصال بالحضارات القديمة مما أدى إلى ظهور المنابت الأولى للحضارة الإسلامية فى أواخر عهدها، فإن للدولة العباسية فضل رعاية هذه المنابت الحضارية والعمل على تنميتها وازدهارها . فالمسلمون نقلوا وترجموا وعربوا هذا التراث القديم إلى لغتهم العربية حتى إذا ما استوعبوا ما نقلوه، أخذوا ينتجون ويبدعون ويضيفون، حتى قدموا للعالم ما عرف بالحضارة العربية الإسلامية، وهى الحضارة التى توفرت لها تلك المزايا الثلاث التى لا تتوفر إلا فى الحضارات الكبرى وهى : الامتياز، والأصالة، والاسهام فى تطور البشرية(١).

ومعنى ذلك أن الثقافة الإنسانية ذات موارد متعددة بين شرقية وغربية، وما أشبهها بنهر جار تصب فيه فروع مختلفة، وهو فى مجراه يغذى آفاقا جديدة ويبعث طاقات متجددة، وتتضح حقيقة ذلك القول كلما درسنا الحضارات والثقافات القديمة وكشفنا عن وجهها الصحيح. فما من نهضة حضارية ازدهرت فى أمة من الأمم خلال حقبة من الحقب إلا وكان ازدهارها نتيجة لتزاوجها بثقافة حضارة خارجية وفدت عليها بمعنى أن كل حضارة من الحضارات الإنسانية استفادت من جهود الحضارات السابقة لها، وإلا لما تقدمت الحضارة العالمية، وأصبح لزاما على كل أمة أن تبدأ البناء من أساسه.

وقد انتقلت الثقافات الإنسانية من أمة إلى أخرى إما عن طريق الاتصال والاختلاط أو عن طريق الغزو والفتح أو عن طريق الترجمة، ففى أعقاب الفتوحات الإسلامية اتصل مسيحيو الشرق بالمسلمين وقاسموهم العيش والحياة، ونعموا معهم بتسامح دينى واشتركوا فى نشاطهم الفكرى والثقافى، وقادوا الحركة العلمية الإسلامية الناشئة، وكان منهم أطباء ورياضيون وفلاسفة وفلكيون وكيميائيون أسهموا فى نقل التراث اليونانى إلى العربية، وبدأ البحث العلمى طليقا فأخذ المسلم عن المسيحى، والعربى عن الفارسى وبالعكس. كل ذلك يؤكد أن العلم ليس حكرا على شعب من الشعوب وإنما الحضارات الإنسانية هى نتاج جهد بشرى متنوع ومتواصل، يشهد

(١) موسوعة العالم الإسلامى، ملامح الوحدة فى حضارة العالم الإسلامى ص٤٠.

بذلك تاريخ الحضارات القديمة والوسيطة والحديثة والمعاصرة ويؤكده حركة الاتصال بين الشرق الإسلامى، والغرب الأوربى التى بلغت أوج ازدهارها فى العصر العباسى وإن كانت بذرتها قد بدأت فى أواخر العصر الأموى فالتأليف فى العصر العباسى شمل كل فرع من فروع العلوم، وعُدّ المؤلّفون والمؤلفات فيه بالمئات، وباستعراض كتاب الفهرست لابن النديم فيما أُلّف فى ذلك العصر يجعلنا نقف موقف الدهشة والاستغراب، ليس من ناحية عدد المؤلفات التى ألفت فحسب بل من ناحية معالجة العلماء المسلمين فى العصر العباسى لشتى أنواع العلوم[1] . وهؤلاء قاموا بدور فاعل فى تأسيس الحوار بين الحضارة العربية الإسلامية الوليدة فى المشرق العربى وحضارات الهند وفارس فى الشرق واليونان فى الغرب وشارك فى هذا الحوار علماء وفلاسفة وأدباء أمثال "الكندى" و"الفارابى" و"ابن سينا" وغيرهم الذين ركزوا حوارهم مع المنجزات العلمية والفلسفية للحضارات العالمية عموما ومدى تأثر كل منها بالأخرى.

ولتوضيح ذلك الأمر يمكن القول أنه لو لم يصل ما بقى من مؤلفات اليونان على يد العرب إلى أوربا لتأخرت النهضة الأوربية، ولولا ظهور «ابن الهيثم» و«جابر بن حيان» وأمثالهما من العلماء المسلمين لتأخر ظهور «جاليليو» و«نيوتن» وغيره. وبمعنى آخر فإنه إن لم يظهر ابن الهيثم لاضطر نيوتن أن يبدأ من حيث بدأ ابن الهيثم، ولو لم يظهر جابر بن حيان لبدأ «جاليليو» من حيث بدأ جابر وهكذا وعلى هذا يمكن القول بأنه لولا جهود العرب والمسلمين لبدأت النهضة الأوربية فى القرن الرابع عشر من النقطة التى بدأ منها العرب نهضتهم العلمية فى القرن الثامن الميلادى.

لقد نشطت علاقات العرب بأوربا بعد أن نمت الدولة العربية الإسلامية واتسع نشاطها وصار للعرب مراكز انفتاح حضارى فى صقلية وقبرص وكريت وأجزاء من جنوب إيطاليا وجنوب فرنسا فضلا عن شبه جزيرة أيبريا حيث قامت فى الأندلس خلافة إسلامية عربية تنافس الخلافة العباسية فى المشرق.

وقد اتخذت هذه العلاقات فى معظمها طابعا حضاريا، هذا فى الوقت الذى كانت فيه أوربا تعيش فى ظلمات العصور الوسطى، فلما أفاقت من غفوتها فى أواخر هذه

(١) أحمد أمين : ضحى الإسلام ـ نشأة العلوم فى العصر العباسى الأول ص ٣٦٣ .

العصور وجدت نفسها أمام حضارة عربية إسلامية زاهرة، فأقبلت عليها واستمدت منها أصول نهضتها الحديثة ثم أضافت إليها العديد من أساليب البحث العلمى، كما توصلت إلى العديد من الحقائق العلمية. ثم دار الزمن دورته وانقلبت الصورة حيث أخذت الحضارة العربية الإسلامية فى التراجع والتخلف أمام الحضارة الأوربية الحديثة.

ولم يعد أمام العرب سوى الأخذ من الأوربيين فبعد أن كان العلم يؤخذ من العربية أصبح لمن أراد أن يكون عالما أن يبدأ بتعلم اللغات الأوربية خاصة بعد أن فقدت المخطوطات العربية الأصلية، وأصبح هذا التراث فى أيدى الأوربيين، ومكتوبا بلغتهم.

لقد أحدث عصر النهضة الأوربية نقطة تحول فى كافة مناحى الحياة ليس فى أوربا وحدها بل وفى كافة أنحاء الكرة الأرضية، فبعد حدوث الكشوف الجغرافية التى أسفرت عنها حركة الاستعمار الأوربى، ثم حدوث الانقلاب الصناعى، ونمو الحركات القومية فى أوربا بدأ التوسع الاستعمارى الأوربى للشرق وتبعه استغلال لثروات شعوبه ثم نبت الوعى القومى وبرزت ثورات الشعوب العربية ضد الاستعمار وتبعها حركات التحرير خاصة فى أعقاب الحرب العالمية الثانية التى غيرت الكثير من ملامح الخريطة العالمية، فاحتلت دول مكان الصدارة، فبرز الاتحاد السوفيتى كقوة منافسة للكتلة الغربية بزعامة الولايات المتحدة، وتراجعت دول مثل بريطانيا وفرنسا إلى المرتبة الثانية، كما ظهر ما يسمى بالحرب الباردة بين الكتلتين الشرقية والغربية واستمر ذلك لفترة حتى تفكك حائط برلين ١٩٨٩، وانهار الاتحاد السوفيتى عام ١٩٩٠ وانتهت فترة ما يسمى بالحرب الباردة، كما انتهى عالم القطبين، وظهرت الولايات المتحدة كقطب أوحد فى العالم، وخلال ذلك حلّت صراعات جديدة مكان الصراع الأيديولوجى الذى كان قائما بين الاشتراكية والرأسمالية، منها الصراعات الدينية والعرقية، والقبلية والمذهبية، ومنها ما كان بسبب رواسب تاريخية قديمه ومنها الصراع على المصالح والنفوذ والسيطرة فى العديد من مناطق العالم، فما أن تخمد جذوة نار فى إحدى بقاعه حتى تلتهب وتتأجج النار فى بقاع أخرى.

كما بدأت بعض أجهزة الإعلام الغربية تعلن عن بداية عالم جديد يميزه علاقات التعاون بدلا من الصراع والتصادم، وفى نفس الوقت برزت مصطلحات أخرى مثل

صراع الحضارات والثقافات والديانات . كما برزت فكرة البحث عن عدو جديد خاصة بعد أن ظهرت محاولات لأراء تفسر وتتنبأ بحركة التاريخ فى المستقبل، وكان أكثرها انتشارا وتأثيرا نظرية «فوكو ياما» المعروفة بنهاية التاريخ ثم ما طرحه «صموئيل هانتجتون» أستاذ العلوم السياسية بجامعة هارفارد الأمريكية من أفكار حول "التغيير فى مناخ الأمن والمصالح القومية الأمريكية "بعنوان صدام الحضارات The Clash of Civilization وقوله بأن التهديد الإسلامى للحضارة الغربية حقيقة واقعة وأن الصراع بين الغرب والإسلام، سيكون حتميا، وأن الحرب بينهما ستحل محل الحرب بين الغرب والشيوعية . لم تتوقف الكتابات منذ ذلك الوقت حول هذا الموضوع سواء المؤيدة لهذا الرأى والتى تقوم بالتحريض ودق ناقوس الخطر إيذانا بحرب باردة أو ساخنة بين الإسلام والغرب أو المعارضة له والتى تحاول تبنى الأفكار التى تخدم التقارب بين الإسلام والأوربيين والأمريكيين وإبراء ساحة الإسلام من التعصب.

وقد انتقدت العديد من الأقلام العربية والإسلامية الأفكار المعادية للإسلام، واستبدلت كلمة الحوار بديلا عن كلمة الصراع، كما بدأت فكرة قبول الآخر تنمو وتتحرك من أجل تحصين البشرية من مخاطر الصراع الدينى والمذهبى والعرقى، على حين أخذت أجهزة الإعلام الأمريكية والأوربية تردد أقوال "هانتنجتون وتؤيدها، وتزعم أن الإسلام كعقيدة يتوافر فيه الدعوة إلى التعصب والتطرف، مما كان له أثره على متخذى القرار فى هذه الدول فازدادت الصراعات اشتعالا فى أماكن كثيرة من العالم أدت إلى حالة عامة من القلق الإنسانى ومعاناة الملايين من البشر ثم ازدادت هذه النغمة، بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ وما لحقها من تطورات خطيرة فبعد أن اخترقت بعض الطائرات المدنية أعلى أبراج العالم وأكثر رموز أمريكا قوة تولدت موجة من مشاعر الغضب والاستياء والكراهية فى الولايات المتحدة وبعض البلدان الأوربية تجاه العرب والمسلمين بسبب سرعة إلقاء التهم جزافا من قبل المسئولين الغربيين على عناصر عربية وإسلامية بتدبير الأحداث، ودمغها بالإرهاب، وبرزت فكرة المواجهة الحضارية ضد كل من يعترض على النموذج الرأسمالى الغربى، وبأن هناك بشر متخلفون يكرهون نموذج الحياة الأمريكى ويريدون تدميره والقضاء عليه، وأن على

أمريكا أن تسارع بتدميرهم. وفى الجانب الآخر تولدت موجة من الرفض والاحتجاج على السياسة الأمريكية بسبب طريقة تعاملها مع الأحداث وانحيازها الكامل لإسرائيل ضد حقوق الشعب الفلسطينى.

وفى هذه الدراسة نحاول عرض حقائق هذا الموضوع بطريقة موضوعية وتوضيح كافة الأمور خاصة أمام الغرب الذى بدأ يوصم الإسلام والمسلمين بالإرهاب والرغبة فى سفك الدماء، وتأكيد أنه ليس هناك صراع بين الحضارات، بل هناك حضارات متحاورة، وأن حوار الحضارات كان النموذج الذى وضعته الحضارة الإسلامية، فقد أخذت الحضارة الإسلامية من الحضارات الأخرى وأعطتها، كما أنها لم تقلل من ثقافات الشعوب التى فتحها الإسلام بل استعانت بها وأعانتها بمعنى أن المسلمين قاموا أحيانا بدور المعلم الذى علم أوربا وأخضع علومها لتصويباتهم وأضافوا إليها . وفى أحيان أخرى قاموا بدور التلميذ الذى أخذ من علوم اليونان والفرس والهنود وغيرهم.

وليس من شك فى أن اتصال أمة بأخرى يترك آثاره العديدة فى النظم والعادات والعقائد واللغة والثقافة تظهر معالمها فى الضعيف أكثر مما تظهر فى القوى خاصة وأن الناس كانوا وما زالوا مولعين بمحاكاة من هو أعلى منهم حضارة وأوسع ثقافة. فقد جاء الإسلام كمنهج وحياة يرسم الطريق، ويوضح معالم الحياة الدنيوية والأخروية تمام الوضوح ومن خلاله تحققت العدالة والمساواة والكرامة والحرية واحترمت كرامة الإنسان حيث كانت نظرة الإسلام للإنسان والحياه شاملة فقد أقر الإسلام الإنسان كجسم وعقل وروح، وعمل على إقامة وحدة بشرية تقوم على الحرية والمساواة والتسامح وتعمل على إزالة الحواجز السياسية بين البلاد المختلفة وتعطيها شكلا موحدا مما كان له أثره المباشر فى العديد من ألوان الحياة.

والجدير بالذكر أن فى أوربا علماء منصفين، حفزهم الإنصاف والروح العلمية الصحيحة إلى الاهتمام بالتراث العربى، والاعتراف بعظمة ما تركه العقل العربى للعلم والعمران. وقد ثبت لهم أن الحضارة العربية حضارة يزدان بها التاريخ، ويحق للدهر أن يفاخر بها فقد قدرت كلية الطب بجامعة باريس جهود العلماء العرب لدرجة أنها لا تزال تحتفظ حتى اليوم بصورتين كبيرتين فى إحدى قاعاتها الكبرى إحداهما «للرازى»

والأخرى «لابن سينا»، كما قدرت جامعة برنستون الأمريكية خدمات العرب وأفضالهم على الإنسانية والثقافة فراحت تخصص أفخم ناحية فى أجمل أبنيتها لمأثر علم من أعلام الحضارة العربية البارزين هو «الرازى»، كما راحت تنشئ دارا لتدريس العلوم العربية والبحث عن المخطوطات وإخراجها ونقلها إلى الإنجليزية حتى يتمكن العالم من الاطلاع على أثر التراث العربى فى تقدم العلم وازدهار العمران. إن موضوع أثر الحضارة العربية الإسلامية فى ثقافة الغرب ومدنيته، موضوع متشعب النواحى والاتجاهات احتل من دراسات العلماء مكانا بارزا، وبرزت فيه العديد من المؤثرات على الفكر والحضارة الأوربية وظهر ذلك جليا فى الكوميديا الإلهية لدانتى أو فى الموشحات الأندلسية فى الشعر الغنائى الأوربى أو فى تأثير آراء ابن سينا فى الفلسفة الأوربية أو تصوير النهضة العربية الإسلامية ومنجزاتها فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى)، أو فى دراسة تراث الإسلام وبيان معابره إلى الفكر الأوربى مما يؤكد تواصل الحضارات العالمية، واتخاذها سبيلا إلى إبراز الوحدة الإنسانية التى تدفع إلى التعاون الحقيقى لإقرار السلام والمحبة بين الدول على اختلاف الوانها وأجناسها وثقافاتها وألسنتها.

إن الإزدهار الحضارى الذى تشدو به أوربا فى الوقت الحالى إنما هو حصيلة الجهود المتعاقبة للحضارات الكبرى التى تركت بصماتها على تاريخ البشرية ومنها الحضارة العربية الإسلامية، مما يعنى أن الحضارة الحديثة التى نعيشها الآن حضارة عامة لا تتعلق ببلد من البلدان أو بشعب من الشعوب بل أسهم فى بنائها أبناء البشرية جمعاء ولكى يتضح ذلك فإن خطة هذه الدراسة تنحصر فى ثلاثة أقسام رئيسية :

القسم الأول ويتعرض لمعابر الحضارة العربية الإسلامية إلى أوربا فى أوائل عصر النهضة.

والقسمان الثانى والثالث تناولا الشواهد والأدلة التى توضح تأثر الفكر الأوربى بمنجزات الفكر الإسلامى فى الأدب، والجغرافيا، والتاريخ، والموسيقى، والعمارة، وعلوم الملاحة، الطب، الفلك، الهندسة، الفلسفة، الفنون وغيرها . وفيه تم توضيح صورة تأثير الحضارة العربية الإسلامية فى أوربا. وليس هناك شك فى أن هناك ميادين أخرى يمكن إضافتها إلى هذه الموضوعات مثل الاجتماع والفكر السياسى وغيره .

أما القسم الرابع فيثبت أن لقاء الحضارات ضرورة حتمية للحوار، وأن ما يتردد بأن حضارة الغرب أعلى من حضارات العالم الإسلامى أمر يرفضه التاريخ كما ترفضه الحقيقة وأن الفرصة لا زالت سانحة لتغيير هذه المفاهيم، وإقامة عالم يسوده السلام والاستقرار والاحترام المتبادل بين الأمم والشعوب ومن عجب أن الإنسان صانع الحضارة يقف أحيانا موقفا متناقضا، فهو يهدد الحضارة بالخطر والفناء والقضاء عليها وعلى نفسه أيضا إذا ما ركب متن الشطط وأفلت الزمام من يده.

والله الموفق ،،